# الفكر الاقتصادي الطبيعي

شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر مجموعة من الأحداث الضخمة التي قدر لها أن تحدث تغيرات أساسية في حياة الناس، وتبشر بقيام عصر جديد في المجتمع أو النظام الاقتصادي والاجتماعي الأوروبي. ففي هذه الفترة بدأت الثورة الصناعية والتي أتاحت إمكانيات بالغة من الثراء والقوة أمام الرأسمالية الصناعية. وفي العام 1776 صدر إعلان استقلال الولايات المتحدة، وبذلك أزال دعامة من دعامات النظام الاستعماري القديم. وفي العام نفسه صدر كتاب ثروة الأمم لآدم سميث الذي قدر له أن يصبح مصدرا وبداية الاقتصاد للأجيال القادمة. وقبل انتهاء القرن حدثت الثورة الفرنسية.

وكان الناس من قبل يرجعون إلى القدماء من فلاسفة اليونان، ثم إلى آباء الكنيسة من بعدهم يلتمسون عندهم المعرفة والتفسيرات للظواهر. لكنه ما لبث أن ظهر أفراد راحوا يكتسبون المعرفة عن طريق دراسة الطبيعة ذاتها. وتعتبر أفكار مدرسة الطبيعيين ردة فعل لأفكار مدرسة التجاريين، حيث رفض الاقتصاديون الطبيعيون الفلسفة التجارية.

**مدرسة الطبيعيين:**

ظهرت مدرسة الطبيعيين في فرنسا في القرن الثامن عشر، وهي أول مدرسة حديثة من المفكرين الذين اعتبروا أنفسهم اقتصاديين أو أول مدرسة حديثة في الفكر الاقتصادي. وقد عرفوا باسم أنصار المذهب الطبيعي. وعلى رأسهم الدكتور فرانسوا كيناي وقد مثلت آراء وكتابات هذه المجموعة بداية ظهور علم الاقتصاد السياسي. وجوهر فلسفتهم وهو النظام الطبيعي، بمعنى أن المجتمع البشري تحكمه قوانين طبيعية لا يمكن أن تغيرها القوانين الوضعية. ويعتقدون أن هذه القوانين قدرها الله من أجل سعادة البشر، وأن أي انحراف عنها يسبب الاضطراب والمشكلات، وأن مثل هذه القوانين في نظر الطبيعيين تحكم جميع مناحي الحياة بما فيها الحياة الاقتصادية وتسيرها بانتظام بالغ بالضبط كما أن هناك قوانين طبيعية تحكم المجموعة الشمسية أو الدورة الدموية.

ويعتبر الطبيعيون أن الطبيعة هي المصدر الوحيد للثروة الاقتصادية، وقد ترتب على ذلك أن النشاط الاقتصادي المنتج هو استغلال الموارد الطبيعية فقط في حين أن نواحي النشاط الاقتصادي الأخرى مثل الصناعة والتجارة والخدمات تعتبر نشاطات غير منتجة.

**التحليل الاقتصادي لفكر مدرسة الطبيعيين:**

نادت مدرسة الطبيعيين بالحرية الاقتصادية وعدم تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية. واستند التحليل الاقتصادي للمدرسة على ثلاث أسس أو أركان، والتي اعتبرت فيما بعد أركان النظام الرأسمالي وهي:

**الركن الأول:** مبدأ المنفعة الشخصية، والتي تقوم على فكرة أن كل شخص يهتدي في تصرفاته الاقتصادية إلى ما يحقق منافعه الشخصية.

**الركن الثاني:** مبدأ المنافسة الحرة، وهو يقوم على أن كل فرد حينما يسعى لتحقيق منافعه الشخصية يدخل في تنافس مشروع مع بقية الأفراد في المجتمع.

**الركن الثالث:** الإيمان بوجود قوانين طبيعية، تتولى الحياة الاقتصادية عن طريق مبدئي المنفعة الشخصية والمنافسة الحرة.

وتبين من ذلك أن الطبيعيين كانوا متفائلين في نظرتهم لسير الحياة الاقتصادية، ومن مظاهر هذا التفاؤل هو اعتقادهم بأن كل فرد عندما يسعى لتحقيق مصلحته الشخصية يسعى في نفس الوقت لتحقيق مصلحة الجماعة أيضا. وقد قسم الطبيعيون النشاطات الاقتصادية إلى مجموعتين. الأولى تخص النشاطات التحويلية التي تقوم بتحويل المواد الخام إلى سلع تامة الصنع، وهذه النشاطات مفيدة لكنها لا تساهم في زيادة الثروة. والثانية تخص النشاطات المنتجة التي تعتمد على الأرض مثل الزراعة والصيد والتعدين. وبالنسبة للأفراد تم تقسيمهم إلى قسمين الأول الطبقة المنتجة العاملة في الأرض والثانية بقية سكان وهم طبقة الملاك، وكذلك الطبقة الفقيرة وهم الذين يمارسون أعمالا خدمية.

**أهم الأفكار الاقتصادية لدى هذه المدرسة:**

اهتمت المدرسة الطبيعية بتحديد مفهوم الثروة وتوزيعها عن طريق الدورة الاقتصادية وحصرها في الإنتاج الزراعي، ولذلك فقد أكدوا على:

1- الثروة لدى الطبيعيين هي الإنتاج الزراعي وليس جمع المعادن الثمينة كما يقول التجاريون.

2- اكتشاف الدورة الاقتصادية من الزراعة وإليها: ويعتبر فرنسوا كيناي أول من تكلم عن دورة الناتج الصافي في الاقتصاد القومي، وقد شبه كيناي تداول المنتجات في الجسد الاقتصادي، الكتاب تداول الدم في الجسد الإنساني. ويمكن تلخيص مفهوم الدورة الاقتصادية كما يراها كيناي كما يأتي.

- يتم تحقيق الناتج الصافي بواسطة مزارعين فيقدمون جزء من الناتج إلى ملاك الأراضي الزراعية مقابل استخدامهم لأراضيهم ويحتفظون بالباقي؛
- ينفق الملاك ما آل إليهم من أجل الحصول على ما يلزمهم من منتجات المزارعين، فيعطون بعض نقودهم للمزارعين و لشراء ما يلزمهم من التجار؛
- يتلقى التجار والصناع من المزارعين جزء من دخولهم مقابل ما يشتريه المزارعون من هؤلاء التجار والصناع وهكذا يؤول إلى التجار والصناع دخل من مصدرين هم الملاك والمزارعون؛
- ينفق التجار والصناع هذا الدخل الذي اكتسبوه لدى المزارعين للحصول على ما يلزمهم من المنتجات الغذائية والمواد الأولية اللازمة لنشاطهم الاقتصادي.

وهكذا فإن كل الدخل يؤول في النهاية إلى المزارعين، ولهذا فإن المنتجات والدخول تمر بدورة تبدأ من الزراع وتنتهي بهم، وهكذا تتبين أهمية الزراعة في النشاط الاقتصادي.

3- وحيد الضريبة. وفرضها على الناتج الزراعي فقط: لأن مثل هذا النشاط في نظرهم هو النشاط الإنتاجي الوحيد، وأن الفائض الوحيد مصدره الأرض، فيجب فرض الضريبة على الناتج الزراعي، ويجب أن لا تكون الضرائب متعددة لأننا لو فرضنا الضريبة أيضا على الصناع والتجار فإنهم يدفعونها ولكنهم ينقلون بعد ذلك عبئها إلى الزراع، مما يرفع من ثمن المنتجات التي يبيعونها بمقدار الضريبة.

**السياسات الاقتصادية والمالية لمدرسة الطبيعيين:**

نادي الطبيعيون بسياسة الحرية الاقتصادية وعدم تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية أي أن يترك النشاط الاقتصادي حرا مخالفين بذلك سياسة التجاريين ونادوا أيضا بتطبيق تلك الحرية الاقتصادية في الداخل. والتي انعكست بالشعار "دعه يعمل" وفي مجال العلاقات الاقتصادية مع الخارج انعكست بالشعار "دعه يمر". وهذا معناه اترك الناس

يعملون بحرية، واترك السلع وعناصر الإنتاج تمر بحرية عبر الحدود، وحجتهم في ذلك هي أن هذه السياسة وحدها تمكن من انطباق القوانين الطبيعية وتؤدي بذلك إلى تحقيق الخير الذي تكفله هذه القوانين.

أما بخصوص عدم تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية، فإنه لا يعني إلغاء الدولة، بل يعني الحد الأدنى من التشريعات الاقتصادية والتدخلات، وأن يقتصر عمل الدولة على مهمة الكشف عن القوانين الطبيعية وإصدار التشريعات الناجمة عنها، وكذلك تحقيق الأمن الداخلي والخارجي وحماية الملكية الفكرية من الاعتداء عليها، وتنفيذ الأشغال العامة.

**تقييم مذهب الطبيعيين:**

في معرض تقييم مذهبي مدرسة الطبيعيين، سوف نستعرض الجوانب الإيجابية للمدرسة وكذلك الجوانب السلبية والمآخذ كما يأتي.

مزايا ومساهمات الفكر الاقتصادي ل طبيعيين.

- قدم الطبيعيون مساهمات كثيرة تعتبر خطوات مهمة في تطور الفكر الاقتصادي وفتح الباب لبلورة علم الاقتصاد المستقل والذي اعتبره علما اجتماعيا، كما أشاعوا فكرة الحرية الاقتصادية والمذهب الحر وبذلك فإن الطبيعيين يمثلون أول مدرسة للاقتصاديين.
- الطبيعيون جعلوا الاقتصاد السياسي علما مستقلا بين العلوم، وذلك على يد فرنسوا كيناي الذي يعتبر أبو الاقتصاد السياسي، و خلصوه من التبعية للفلسفة والدين والأخلاق.
- لم يعد ينظر الاقتصاديون إلى النقود على أنها هي الثروة الحقيقية، بل إن الإنتاج في نظرهم يمثل الثروة الحقيقية.
- الطبيعيون أول من أعطى صورة عن الدورة الاقتصادية، أي دورة الناتج داخل البلد وتوزيعه بين الطبقات الاجتماعية المختلفة.
- عمل الطبيعيون على تشجيع الصناعة وذلك من خلال تأييد حرية التجارة رغم أنها لم تكن مقصدهم.

**سلبيات ومآخذ الفكر الاقتصادي للطبيعيين:**

- يؤكد البعض على أن معظم آراء الطبيعيين غير صحيحة وخاصة أفكارهم بخصوص عقم النشاط الصناعي والتجاري، وجعل النشاط الزراعي نشاطا منتجا، وهذا مجافي للصواب.
- وقد ترتب على خطأهم في تحديد مفهوم الإنتاج وقصره على الإنتاج الزراعي أنهم نادوا بأن تكون الضريبة مقتصرة على الناتج الزراعي فقط لأن الزراعة في نظرهم هي التي تنتج الفائض، في حين أن الصناعة والتجارة يخلقان ناتجا صافيا أيضا. ويعتبر هذا الرأي مجافيا للعدالة ويتعين فرض الضرائب على جميع النشاطات.
- لا يمكن القول أن للقوانين الاقتصادية ما للقوانين الطبيعية من دقة وشمول في التطبيق كما يزعم الطبيعيون.
- أن الاقتصاد السياسي لا يخضع لقوانين طبيعية ثابتة مطلقة كما تخيلها الطبيعيون، فالظواهر الاقتصادية تتغير وتتغير تبعا لها القوانين التي تحكمها.

- يرى البعض بأن اهتمام الطبيعيين اهتماما بالغا بالزراعة ووضعهم الصناعة في مرتبة أدنى ساعد على خلق جو يساعد على إهمال الصناعة مما يترتب عليه آثار سيئة تؤدي إلى حرمان البلدان من التقدم الصناعي.
- يؤخذ على الطبيعيين تفاؤلهم الكبير واعتقادهم بأن القوانين الطبيعية ما دامت من خلق الله فلا يمكن أن يسبب تطبيقها آلاما ومتاعب اقتصادية للناس أو لبعض الناس.